أدب القصة وتطورها

طبع الأديب «حسن رشاد» بمعهد التربية، رواية مصرية من تأليفه، أسماها «مخاطرات الشباب أو الأميرة الهندية»؛ وبها تصدير بقلم صاحب «المعرفة» فى «أدب القصة وتطورها»، وقد تناول فيه الأدب الدرامى بالبحث والتحليل. فآثرنا نشره لقراء «المعرفة» فيما يلى:

تمهيد

لعل كاتب هذه السطور من أزهد الناس فى القصة، وأقلهم عناية بها، وتعلقاً بأمرها، لا عن تصغير لشأنها كما يبدو لأول وهلة، ولا عن قلة إيمان بأثرها فى الثقافة، ولكن لأنه يذكر - منذ سنوات معدودات - ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى أحد الناشرين حاملا مسودات رواية له أسماها «فى ظل الغرام»، وقد كانت قطعة من ذات نفسه هو، وعصارة من صميم حياته هو؛ فلم يعد إلى منزله بتلك المسودات، وإنما عاد وكله آمال ومطامع وأحلام، أو قل عاد وكله زهو وخيلاء؛ أليس الناشر قد قبل طبعها ونشرها فاشتراها منه ليطبع منها آلافاً وآلافاً؟ وينشرها فى جميع أرجاء المعمور متوجة باسمه «الكريم»؟! وأى فخر يسمو على هذا؟ بل أى سؤدد يزنه؟ أو أليس قد عاد وملء نفسه يقين بنزاهة الناشر، وملء يديه جنيه مصرى هو عربون الصدق فى القول والإخلاص فى العمل!؟

لكن قدر فكان، وذهبت أحلام صاحبنا هباء، فقد كان ذلك الجنيه المقدس الأول والآخر من نوعه فى تلك الصفقة، كما كانت روايته الأولى والأخيرة من محاولاته، إن جاز لنا التنبؤ. وماذا يعمل بإزاء الناشر وهو ذو الحول والسلطان! اللهم لا شىء، فلتذهب النفس إذاً بما تحمل من آلام حيث شاءت، وعلى الثقافة العفاء والفناء.

هذه الرواية التى مثلت معى، والتى اقتضيتها اقتضاباً، كانت كافية لتصدنى عن التفكير فى معالجة هذا النوع من الكتابة الذى كنت أحب، بل كانت كفيلة بصرف الجهد إلى غير ما كنت أحب، وما أحسبنى بالنادم على ذلك بالغ الندم، ولكن أحسبنى حرمت لذة التفكير والخلق والابتداع والابتكار، بل لذة التخيل والمبالغة والتهويل، بل لذة الاختلاق ... وأقول الاختلاق الذى أراه الدعامة الأساسية فى خلق القصة.

أغراض القصة

ما الحياة الانسانية فى مختلف أطوارها وتعدد اتجاهاتها إلا قصة من القصص ، فهى لاتخرج عن أن تكون مجموعة من الحوادث ، آخذ بعضها برقاب بعض، إن تآلفاً وإن تنافراً ؛ وهى إن ائتلفت أو تنافرت فسبيلها فى النهاية إلى غرض واحد ، وإن تعددت ألوانه ، ذلك هو إبراز كثير من المثل العليا للانسانية فى شخص البطل الواحد أو الأبطال المتعددين.

ولا يفيد قولنا هذا أن القصص لايقصدبها إلى تسلية النفوس ، وتلهية القلوب ، وتزجية الوقت ، وصرف الشعب عن الشغب أحياناً ؛ أو دعوته إلى الثورة أحياناً ، وإنما يؤدى قولنا معنى ذلك كله ، كما يؤدى معنى اتخاذها سبيلا إلى بث الآراء العلمية ، أو المذاهب الاجتماعية ، أو النزعات الدينية ، أو وصف الحوادث والسير والتاريخ ، وشرح العوامل النفسية لكل عصر وجيل .

وما أظنك تجهل تلك القصص الشعبية التى ذاعت فى آخر العصر الأموى ، وفى غضون العصر العباسى ، مما امتلأ به كتاب «ألف ليلة وليلة» من قصص: قمر الزمان ابن الملك شهرمان ، والسندباد البحرى ، وعجيب وغريب ، ومدينة النحاس ، ثم فيروزشاه وأضرابها مما أخذ عن أصل فارسى ، أو ما جاء فى قصص عنترة ، وبكر ، وتغلب ، والزباء ، والزير سالم ، وسيف بن ذى يزن ، وعلى نور الدين ، وذات الهمة ، وحسن البصرى ، وسلطنة دياب ، وأبى زيد الهلالى ، والزناتى خليفة ، وغيرها مما أخذ عن أصل عربى ، ثم ماجاء فى « كليلة ودمنة » مما أخذ عن أصل هندى .

والكتب المقدسة عامة والقرآن خاصة ، خير شاهد عدل على هذا ، والقرآن نفسه زاخر بقصص الأنبياء والمرسلين وغيرهم ، ممن لاتغيب عن ذهن القارىء أسماؤهم .

كان الغرض إذاً من جل هاتيك القصص الشعبية الوضعية ، المحتوية على روائع الأسمار ، وبدائع الأخيلة ، وعذب الأحاديث ، وبلاغة الحدث ، تخدير أعصاب الشعب ، واتخاذها لعقوله سحراً ، وبثها فى أعصابه سكراً ، وفى قلوبه فتنة ، وإرسالها للـ[illegible] [illegible] عما يدور فى قصور الخلفاء والأمراء حول الخلافة والامارة ، وما يجرى مجراها من [illegible] ، وعما كان يدبر فيها من مكائد ومؤامرات ، وما يقام بينها من مجون ومهازل ، مما تراه مبسوطاً فى عيون كتب الأدب العربى وموسوعات السير والتاريخ .

كما كان الغرض من بعضها ـ وهذا قليل ـ صوغ العلوم والفنون والآداب والفكر الدينية والنزعات الفلسفية فى أساليب مشوقة ، وعبارات سهلة سلسة ، تحمل فى غضونها الحكمة العالية ، والمأثورات المختارة ، والمذاهب الجديدة ، مما كان لوجوده فيها أثر وأى أثر فى نفوس العرب ، بل فى نفوس الأمم جمعاء ، مصبوغة بصبغة البيئة ، مطبوعة بالطابع

الزمانى والمكانى لكل أمة من الأمم ، خضوعاً لقانون الوجود الذى لازمته هذه الظاهرة الطبيعية ، وأعنى بها ظاهرة القصة ، التى لا يمكن تحديدها بعهد ، أو إرجاعها إلى عصر ، فقد لازمت الانسان فى جميع عصوره وأطوار حياته منذ الخليقة حتى الآن .

وما قصة آدم وحواء إلا دليلا نسوقه فى التدليل على صحة ماتقول .

مزاعم بعض المستشرقين

وهذا نفسه نسوقه دليلا فى تفنيد مزاعم بعض أولئك المستشرقين ، الذين يرون أن القصة لم توجد فى الأدب العربى ، وزعمهم هذا يحمل أدلة تكذيبه بين طياته ، فان القرآن حافل بتلك القصص كما قدمنا ، وهى وإن كانت لا تمثل القصص الحديث ، فقد كانت قصصه نموذج القصة العربية الاسلامية الأولى ، كما كانت هذه القصص نفسها وظيفة للقصاصين المسلمين ، ككعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، والحسن البصرى ، ووهب بن منبه ، وتميم الدارى ، وغيرهم ممن كانوا يجلسون إلى الناس فى المساجد مفصلين مجملين ، مفسرين مسرفين ، مهولين ابتغاء العبرة ، متمثلين رجاء الموعظة .

وفى كتب التاريخ والأدب الشىء الكثير من أخبار القصاصين الرسميين ، الذين كانوا يعينون بأمر الخليفة أو الوالى : وهذا سليمان بن عنتر التجيبى تولى القصص الرسمى فى عام ٣٨ للهجرة ، فأين كان القصاص الغربى ؟ وأين كانت القصة الغربية فى ذلك العهد ؟

ثم أليست قصص ألف ليلة وليلة من صنع العرب ، أو من آثار من اندمجوا فى سلك العرب ؟ أو ليست هى بنفسها التى ظلت قروناً طويلة حتى عهد قريب ذخيرة القصص الغربى ومعينه ؟ فان أبيت إلا الجحود والانكار فاسمع إلى « براون » يقول فى كتابه (تاريخ الفرس الأدبى) : « ولدت القصة فى الهند ، ودرجت فى فارس ، وترعرعت فى بلاد العرب التى وجدت مرعى خصيباً فيها ..... ثم انتقلت إلى الغرب بفضل العرب الذين يعتبرون بحق أساتذة هذا الفن وشيوخه » .

وهذا (جين فرى) يقول : « لست أعرف كم يكون مدى جهلنا بأساليب الحياة الاجتماعية ، لو لم تصلنا القصة التى تعلمنا أصولها على أيدى العرب » .

وهذا (هاردى) يقول : « كما تخيلت ذلك الرجل البدوى جالساً إلى قبيلته فى خيمته ، يحمل الربابة التى ينطقها ببديع ألحانه ، وطيب أسماره ، وحلو حديثه ، ورائع قصصه ، وددت لو دار بى الفلك فرجع إلى تلك العصور السحيقة ، لأمتع النفس بجمال الفن القصصى الساذج الذى لا تكلف ولا تعمل فيه » .

أدب القصة الرسمى فى أوروبا

وجدير بالذين ينكرون على الأدب العربى وجود القصة وأدبها الدرامى فيه بالمعنى المفهوم اليوم ،

أن يعلموا أن ذلك النوع نفسه لم تعرفه أوروبا إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، أى منذ نصف قرن تقريباً .

فقد كان المبدأ الأدبى السائد قبل أواخر القرن التاسع عشر هو المذهب الرومانتيكى ، ذلك المذهب الذى أعفى الأديب من التقيد بالأوضاع والمقاييس الكلاسيكية ، ودفع به إلى تفضيل الشعور على العقل ، والغريزة على الثقافة ، والعاطفة على التمييز وحسن الادراك ، وغير المحتمل على المحتمل ، بل ذهب به إلى الاعتقاد بأن الفرد أهم من الجماعة ، وأن الفضيلة والعقل فى الأدب لا ينفصلان الشعور والهوى .

ونستطيع أن نلخص ذلك المذهب الرومانتيكى فى أنه يدعو إلى شيئين اثنين : الشخصية Individualism والمثالية Idealism .

أما الحالة الاجتماعية فلم تكن قد تطورت إلى ما هى عليه الآن ، فالمرأة كانت ولا تزال معتكفة فى دارها ، تقوم بشئونها المنزلية ، خاضعة تمام الخضوع لزوجها ووالديها . كذلك كان الأبناء لا يستطيعون الخروج عن طاعة والديهم ، بل كثيراً ما يتحكم الأخيرون فى إرادة أبنائهم ويطبعونهم بالطابع الذى يريدونه ، غير حاسبين لميولهم ونزعاتهم أى حساب . ولم يكن الناس قد نبذوا الدين ظهرياً بعد فى شئونهم المدنية والاجتماعية ، فكان لابد لكل زواج أن يعقد فى الكنيسة ، وأن يبارك القسيس العروسين ، ويقوم بكل ما يتطلبه هذا الحفل من طقوس دينية . هذا علاوة على أن الأدباء قلما كانوا يطلقون لأقلامهم العنان ، ويخوضون فى المواضيع التى كانت تعتبر خارجة على الناموس الأخلاقى لذلك الوقت .

بدأ المجددون أمثال : برنسلى وابسن وبتلر ونيتشه حملتهم على تقاليد ذلك العصر وابتدأوا عصر الهدم الذى انتهى تقريباً بنهاية القرن التاسع عشر . فثار هؤلاء على مساوىء المذهب الرومانتيكى وما يتطلبه من إغراق فى الخيال وبعد عن الحقيقة ، وما ألقاه فى روع الناس من تعلق بالمثالية ونزوع عن الصدق فى تصوير الحياة الانسانية كما هى ، دون مغالاة أو إغراق ، فكان (جوستاف فلوبير) و (اميل زولا) فى فرنسا و (تشيكوف) فى روسيا ، يمهدون السبل أيضاً لنشر ذلك المذهب الجديد مذهب الواقعية Realism .(١)

ومن هنا يتضح للقارىء أن أدب القصة الدرامى لم يكن معروفاً فى أوروبا أيضاً إلا منذ عهد قريب . وأنها سبقتنا خاصة فى هذا الميدان منذ قليل .

أما قبل أن يعرف هذا النوع ، فقد كانت القصة العربية موجودة فى الأدب العربى ، فى جميع عصوره ، وفى مختلف دويلاته ، كانت موجودة فى الرسائل القصار ، وفى الرسائل الطوال ، تدرجت من المثل الجاهلى إلى الحكمة العربية ، ومن الحكمة العربية إلى الأقصوصة

(١) مجلة « المعرفة » ج ٨ ص ٩٥٦ : ديسمبر سنة ١٩٣١

الاسلامية ؛ومن الأقصوصة الاسلامية إلى القصة الشرقية العامة التي تتلون فى كل بلد تحل فيه بلون أهله وتتأثر بعاداته وتقاليده ، وتنطبع بالطابع الزمانى والمكانى الخاص .

وذلك حق لا مرية فيه ، لأنه منطق الحياة البشرية ، وهو لا يقصر على لغة دون لغة ، ولا على أمة دون أمة ، وإنما يختلف باختلاف العقلية والجنسية ، ما دامت القصة تؤلف من حوادث الأفراد الذين يعيشون فى المجتمع ، فتربط بين أمسهم ويومهم ، لتلائم بذلك بين ماضيهم وحاضرهم ؛فيتخذون من الأول معياراً للمستقبل ؛ويعدون من الثانى عدة للغد القريب.

القصة المصرية

والآن وبعد أن انتشرت فى أوروبا ذلك الأدب القصصى الدرامى ؛ فقد بدأت النهضة الأدبية فى مصر تخطو خطوات نحوه تبشر بمستقبل باهر ، لأنها نتيجة جهود الشباب المثقفين الذين نهلوا من مناهل الغرب ، وتأثرت مشاعرهم بمشاهد الحياة فيه ، وكان لتوفرهم على الدرس والاشتغال بمختلف فنون الأدب أكبر الأثر فى ازدهار النهضة بما أدخلوه عليها من تجديد وثروة .

وإنك لتلمس آثار هذه الجهود فى البحوث والترجمة والتعريب ، مما يعطينا الدليل على أننا لم نصل بعد إلى حد التطور الفكرى الذى وصلت إليه أوروبا ، ومما يساق دليلا على أن العقلية المصرية التى طغت الثقافة الغربية على تفكيرها ، لم يحن لها الوقت بعد لتبدع وتبتكر ، وأن نهضتنا الفكرية تقف من نهضة الغرب موقف التابع المتبوع ، وتعتمد كل الاعتماد على الانتاج الغربى والثقافة الغربية .

لسنا ننكر ما للترجمة من قيمة وفضل ، ولكننا نرى لها فى مصر آثاراً أبعد ما تكون عن الذوق وعن الخير والجمال ، وأقرب ما تكون إلى التشويه والنقص والجمود ، ولعل أكبر ما خلفته الترجمة والتعريب فى النفوس هى تلك العقيدة الراسخة التى تدفع المصريين إلى أن ينظروا إلى المؤلفات القومية تلك النظرة التعسفية ، وتحميلها أعباءاً من الزراية والتحقير والاستهتار .

فالأديب المصرى لم يرزق الخصال التى تؤهله للاضطلاع بأعباء التأليف والابداع الموقوفة على أدباء الغرب ، ممن اجتمعت لهم مواهب خاصة وألوان من الذيوع والشهرة متعددة ، مما لم يتح لمصرى منا حتى اليوم .

وتبدو هذه الظاهرة بارزة قوية فى الأدب الروائى والمسرحى ،فما من مؤلف إلا وهو ناقل أو محاك ، ومن حق القراء علينا أن نستثنى فئة من القصصيين تعد على أصابع اليد ، كما نستثنى مثل عددهم من المسرحيين ، ممن انطلقوا ـ فى حرية واستقلال ـ يحاولون تمهيد هذا الجانب المقفر بشىء من الخصب والانتاج ، ولكن جهودهم فى الحق جهود محدودة،لا تتعدى دائرة

ضيقة مثقلة بأعباء وتقاليد صارمة : فكثيراً ماتسقط الرواية المحلية سقوطاً شنيعاً لتفاهة موضوعها ، وإذا قدر لها النجاح ، فنجاح مؤقت لايدوم طويلا ، ذلك لأن الرواية المحلية لتفاهة موضوعها وترعزع حوادثها ، لا تستطيع أن تؤثر فى الجماهير التأثير الذى يمكنها من العيش فى قلوبهم طويلا ، ومن ثم كان كساد روايات الأدباء من الكتاب البارزين ، ومن ثم استقر فى الأذهان أن العقلية المصرية لم ترزق القدرة على الخلق والابتكار ، وأنها فقيرة فى تخيلها وتفكيرها ، فقيرة إلا فى الغوص وراء الألفاظ الجذلة ، والتعابير المنمقة ، والأساليب الممتعة الطلية .

المؤلف المصرى والتقاليد

والواقع أنك حين تقرأ الرواية المحلية تشعر بشىء من التذمر ، وبشىء آخر من الملل ، رغم متانة الأسلوب وروعة الانشاء التى يبتدعها الكاتب ويتعهدها بالترويق والتنميق والحلية اللفظية ليغطى بذلك كله ضعفها فى الخلق والابداع والحبك ، وهى محاولة خاطئة نتيجتها انصراف الجماهير عن المؤلفات المحلية والنظر إليها فى غير اهتمام ، فيلحق بها البوار ويصيبها الكساد .

والواقع أن المؤلف المصرى واضح العذر ، لأن عاداتنا وتقاليدنا لا يمكن أن تنتزع منها ما يصلح أساساً لأدب القصة ، ومن هنا نرى ضعف الأدب الروائى وفتوره وتفاهة موضوعه فى مصر بخلاف الحال فى الروايات الأجنبية ، لأن فى مكنة المؤلف الغربى أن يضيف إلى الحقائق المتشعبة ومظاهر الحياة وصورها المتعددة ألواناً مختلفة مما يجود به عليه خياله من الوقائع والظروف المتنوعة المحيطة به ، فتظهر روايته مموهة بما يجتذب إعجاب الجمهور وينال تقديره واستحسانه .

ولقد حاول بعض أدباء مصر النابهين النهوض بالأدب الروائى ولكنهم باءوا بما لم يكن أحد يتوقعه لهم من غير العارفين بالحقيقة ، فتحطمت جهودهم — وجهود الذين عملوا على إخراج إنتاجهم على الشاشة البيضاء — على صخرة الحقيقة التى لم يكن ثمة مفر لهم من الاصطدام بها ، ذلك لأنهم حاولوا وسط دائرة ضيقة محدودة تحوطها اعتبارات وتقاليد لا سبيل إلى الخروج عليها أن ينتجوا ، فجاء إنتاجهم مقفراً من كل مظاهر الفن الروائى ، فاتراً ضعيف الحبك والتصرف ، ضائع العقدة ، مفتعل المفاجأة .

فهمة المؤلف المصرى عسيرة كما ترى ، لأن عقله وتفكيره يجب أن يوفق بين رغبة الجمهور والناشرين ، وبين الواقع الذى لا يمكن أن يتخطاه .

لذلك لم يجد مؤلف روايتنا هذه غضاضة فى أن ينطلق نفسه من هذه القيود ومخالفة السنة التى جرى عليها أكثر المشتغلين بالأدب الروائى .

فاذا كان لنا مانقوله فى هذه الرواية فهو أنها وإن كانت تتفق وميول الكثيرين وأمزجتهم، فقد حرص المؤلف على ألا يخل بواجب الأدب النزيه الشريف الذى يعف عن تملق الجماهير أو إرضاء فئة دون أخرى ، وهو إذ يتقدم بها إلى حضرات القراء ، لا يقدمها لهم على سبيل اللهو بما فيها من حوادث ومواقف ، أو تزجية الوقت بما ضمنها من مفاجآت ، وإنما يفعل ذلك ليكشف لهم بين ذلك كله عن المثل العليا الانسانية فى ناحية من نواحيها السامية . وما على القارىء إلا أن يتجه إلى المثل الأعلى الذى تضطرم به نفسه ويملؤها بنفحات الحرارة والحماس .

وإذا كانت ظروفنا وتقاليدنا قد ألجمت المؤلف وغلته عن خلق الحوادث تحت سماء مصر، فقد حرص على أن يضمن هذه الرواية ما يعلى من شأن مصر ويظهر بجلاء ووضوح صفات أبنائها وحميد خصالهم ونبيل شعورهم وسامى عواطفهم .

ومن اليوم إلى أن يعمل الكتاب الذين يتصدرون زعامتنا على كسر هذه الأغلال الثقيلة وتشجيع الخلق والابداع ورفع مستواه ، وإلى أن تنقى ذمم القائمين بالنشر الذين لا يرقبون إلا ولا ذمة، أو تتولاه فئة مثقفة رائدها المنفعة العامة وخدمة الأدب لذاته ..من اليوم إلى أن تتحقق هذه الأمنيات سيظل الأدب الروائى على ما هو عليه مريضاً مقعداً لا يتقدم إلى الأمام خطوة .

* * *

وأريد أن أنتهى من هذا التصدير إلى تقرير أمر واقع ، هو أن النهضة الأدبية فى مصر ـ رغم ذلك كله ـ قد بدأت تؤتى ثمارها، وأن من الحق علينا أن نشجع الناشئين فى الأخذ بتلك السبيل ، حتى يتم لنا أدب حى ، نفاخر به ونباهى .

وإذا كان من الواجب على أن أقرر شيئاً آخر فى صدد هذه الرواية ، فهو أن بها عيباً واحداً ، ذلك هو الغموض والابهام فى الفصل الأول وبعض الفصل الثانى ، وهو العيب الذى أراه جديراً بتقدير المؤلف ، لأنه لم يقصد منه إلى تلهية القارىء ، دون ما تفكير أو إنعام نظر ، أو إعمال روية كما قدمنا، وإنما قصد أن يترك للقارىء مهمة الاستنتاج والاستنباط، وهو ما أعده تجديداً فى كتابة القصة المصرية ، ومحاولة موفقة فى إدخال هذا العنصر إلى ثروتنا العربية ، مما تدعو الحاجة إليه .